مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 14 / العـدد 01 / مارس 2020 / ص ص 219 - 234
Journal home page: http://rss.lagh-univ.dz/
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

المَدْرَسَةُ الصُّوفِيَّةُ فِي الجَزَائِرِ، نَشْأَتُهَا، أَعْلَامُهَا، وَدَوْرُهَا فِي بِنَاءِ المُجْتَمَعِ

The Sufi school in Algeria, its origins, its flags, and its role in building society.

سعيد بن دويفع [1]
[1] جامعة تيارت (الجزائر) ، bendouifqq@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/04/23 تاريخ القبول: 2020/03/28 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخص:

عندما نتصفح تاريخ الجزائر، نجد أن هذا البلد- ومنذ دخول أهله إلى الإسلام-قد تغير جذريا عما كان عليه من قبل، حتى وصل في فترة من الفترات التاريخية إلى درجة السيطرة على البحر الأبيض المتوسط برمّته، بأسطول بحري حربي مهيب، وكان ذلك في العهد العثماني حين بلغ المذهب الصوفي أوجه، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن مدى تأثير التصوف على عقل الفرد الواحد في المجتمع الجزائري، حتى استطاع أن يؤسس دولة بتلك القوة والمهابة؟، لابد وأن يكون للتصوف تأثيره على الذهنية الجزائرية، وإلا لما استطاع أن ينشئ دولة بتلك القوة، وقد كانت قبل ذلك عرضة للهجمات الإسبانية الغاشمة.

إنّ هذه القراءة التي بين أيدينا، تهدف بالأساس إلى معرفة أهم ما قامت المدرسة الصوفية الجزائرية، في بناء مجتمع حضاري أصيل، قادر على التكيف مع جميع التحولات التي قد يمر بها العالم الإسلامي، وكافة أشكال الصراع، الفكري، والعقدي، والعسكري، ... وغيرها، وذلك من خلال تقديم ثلاثة مباحث، نتناول فيها على التوالي المواضيع التالية :1- مفهوم المدرسة الصوفية وتاريخ دخولها إلى الجزائر. 2-أهم أعلام التصوف في الجزائر. 3- تأثير المدرسة الصوفية على المجتمع.

كلمات مفتاحية: المدرسة الصوفية، الجزائر، التصوف، المجتمع.

ABSTRACT:

When you go through the pages of the history of Algeria, you will find that this country changed enormously since the people converted to Islam. they, in some time, dominated the whole Mediterranean Sea with a strong military fleet of battle ships, and that was during the Ottoman era when the Mystic doctrine was at its height, the thing that leads to wondering what effect the Mystic doctrine had on the Algerian people that led them to establish such a great nation. The Mystic doctrine must have had such an influence on the Algerian psyche, or they would not have been able to establish that great country while, before that, was a target to the Spanish brutal attacks.

The thesis at hand tackles primarily the role of the Mystic school in building an authentic civilized Algerian society that is able to adapt to any changes that may occur in the Islamic world, as well as all the kinds of conflicts: intellectual, ideological, or military. We intend to do so through out three chapters entitled respectively as follows: 1- The Mystic School and the

- المؤلف المرسل: سعيد بن دويفع ، الايميل: bendouifqq@gmail.com

ISSN: 1112 - 6752 | الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

Date of its entry to Algeria. 2- The Most Important Figures of the Mysticism in Algeria .3- The influence of the Mystic school on the society.
Keywords: Mystic school, Algeria, Mystic, Society.

1- مقدمة:

لا ريب أنَّ للتصوُّف وأقطابِهِ أدوارا كثيرةً وفضائلَ جمةً لا يمكن لأحد أن يتجاهلها، خاصة في المغرب العربي الكبير، فمن خلاله يُرَبَّى النشء، وتُصان الكرامات، وتُشيَّد الدول، وتُحمى المجتمعات، وكل ذلك راجعٌ إلى تلك الطريقة المثلى التي يتبعها الصوفية في كتاتيبهم وزواياهم، والتي لا تقف عند تلقين المعلومة والتشديد على حفظها فقط، بل تتجاوز الأمر إلى مراعاة البعد الاجتماعي، والثقافي، والبيئي، والسياسي، وحتى النفسي، فهدف المدرسة الصوفية ليس مجرّد تكوين علماء في الدين، وإنما علماء تكون لهم مقدرة فذة على التربية والتعليم أيام السلم، وعلى مجاهدة الأعداء أيام الحرب، وعلى فض النزاعات ونبذ الأحقاد أيام نشوب الخلافات بين أفراد المجتمع الواحد، وعلى قيادة الأمة إلى برِّ الأمان إذا ما أسندت لهم قيادتها، ولنا في الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة خير دليل على ذلك، فقد كان عالما، وشاعرا، وصوفيا، وسياسيا، ومجاهدا، في آن واحد .

والحديث عن المدرسة الصوفية يدفعنا إلى البحث عن أهم أقطاب التصوف وأبرز آثارهم في هذا البلد أو ذاك؛ وفيما يخص الجزائر، فإنّ معرفة فإنّ تحقيق هذا الأمر سيكون – ولاريب - أكثر إجهادا وفائدة، ذلك أنّ الجزائر أكثر غنى وتنوعا فيما يخص الجانب الصوفي، من أغلب البلدان الإسلامية، لسببين اثنين، يتعلق الأول بتجذُر الفكر الصوفي في الجزائر من جهة، ويتعلق الثاني بضعف تأثير أي مذهب مغاير له من جهة أخرى، ولا نعتقد أنّ هنالك دولة إسلامية عرفت التصوف كما عرفته الجزائر أو أكثر إلا قليل، كالمغرب مثلا، وأما عن البقية، كمصر، وتركيا، وغيرها ... الخ، فإنّ فيها مذاهب أخرى منافسة للمذهب الصوفي، وهي جد مؤثرة، أما عندنا فإن الغالب هو التصوف .

وعملا بما سبقت الإشارة إليه، فإننا سنحاول في هاته القراءة المتواضعة، والمعنونة بـ " المدرسة الصوفية في الجزائر، نشأتها، أعلامها، ودورها في بناء المجتمع"، أن نتعرف على ماهية تلك العلاقة الترابطية، بين التصوف كمذهب تربوي إسلامي، كان له باع كبير في بناء الأفراد والمجتمعات، واستمرار الممالك والدويلات، والجزائر كدولة عربية إسلامية، كان لها هي الأخرى تأثير كبير في تاريخ العالم الإسلامي على جميع الأصعدة .

وهو ما لا يتأتى لنا طرحه ومناقشته، إلا من خلال مجموعة من الأسئلة التي نسردها على النحو التالي:

- ما هو تعريف التصوف ؟، و ما هي بدايات ظهوره على أرض الجزائر ؟
- من هم أهم علماء التصوف في الجزائر ؟
- كيف كان دور المدرسة الصوفية في بناء المجتمع الجزائري ؟
- هل حققت المدرسة الصوفية ما كانت تصبو إليه على أرض الجزائر؟

هذه هي الأسئلة التي أردنا أن نخوض غمارها، ونحوز إجابتها، من خلال تأطير العمل وتقسيمه على ثلاثة مباحث، نتطرق في الأول إلى التعريف بالمدرسة الصوفية وتاريخ دخولها إلى الجزائر، ونتطرق في الثاني إلى أهم أعلام التصوف في الجزائر، وأما عن الثالث، فإننا سنتعرف فيه على الخلفية الصوفية للمجتمع الجزائري، أو فيما يتجلى تأثير المدرسة الصوفية على المجتمع ؟ .

2- المبحث الأول : التعريف بالمدرسة الصوفية وتاريخ دخولها إلى الجزائر:

إنَّ تعريف المدرسة الصوفية، والتعرُّف عليها، لا يمكن أن يتضح لنا إلا إذا كنا على دراية بمفهوم التصوف أولا، ذلك أن خصوصيات المدرسة الصوفية، وطبيعة التدريس فيها، لم تظهر بشكل اعتباطي أو جزافي، وإنما كانت منبثقة بالأساس من فهم التصوف على حقيقته، فهما لغويا واصطلاحيا، فالجاهل للمعنى الحقيقي للتصوُّف لا يستطيع أن يفهم معنى المدرسة الصوفية ولا ما تهدف إلى تحقيقه من قيم نبيلة سمحة .

2-1- تعريف التصوف :

إذا تكلمنا عن الجانب اللغوي، فمن الضروري التنويه بأنّ " هناك اختلافا حول المعنى الاشتقاقي لكملة " تصوُّف"، حيث ربطها البعض بلبس الصوف عند المتصوفة، وآخرون بالصفاء، بينما اعتقد آخرون بأنه مشتق من كلمة صوفيا، اللفظ الإغريقي الذي يعني الحكمة "1، إلا أننا نستبعد الرأي الثالث الذي يرجع التصوف إلى الإغريق، لكون التصوف قديم النشأة، حتى أنّ هناك من يرى بأنه من صميم الإسلام، وبذلك يكون ظهوره موازيا لظهور الدين الإسلامي، والعرب في تلك الفترة لم تكن على اطلاع واسع لما يتعلق بالإغريق وعلومهم، ولا نظن أنّها عرفت مفهوم الحكمة عند الإغريق إلا بعد اتساع رقعة الإسلام، وحينها يكون التصوف قد تجذر في قلوب المسلمين وعقولهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، وعلى اعتبار بأنّ التصوف مأخوذ من الإحسان، وهو " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "2، فإنه بذلك يكون مقتبسا من منهج النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن يسلك هذا المنهج لن يكون في حاجة إلى أي فكر، أو فلسفة ما توصله إلى الحكمة، فالحكمة الحقيقية هي اتباع منهج المصطفى صلى الله عليه وسلم.

هذا عن الجانب اللغوي، وأما عن الاصطلاح فإنّ " التصوف في حقيقته مجموعة من المبادئ المتكاملة التي تحكم تصرفات أصحابه في مختلف أوجه حياتهم، الروحية، والاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، والسياسية، وتطبعه بطابع خلقي خاص، وقد اهتم التصوف اهتماما كبيرا بالتربية الروحية والتربية الأخلاقية لارتباطهما ببعض ارتباطا وثيقا، فلا حياة روحية كون حياة أخلاقية، ومن الحقائق التي لا مفرَّ من مواجهتها أنّ الانحلال الأخلاقي يرجع أساسا إلى نقص التربية الروحية"3، وهذا التعريف الذي قمنا بإيراده لا يعطينا المفهوم الاصطلاحي الحقيقي والنهائي للتصوف، فالدراسات في هذا المجال واسعة وجد متشعبة، ومعرفة التصوف على حقيقته وأصله تقتضي منا أن نورد

---

[1] حمادي هواري، التصوف الإسلامي، مجلة تنوير، المجلد 5، العدد 1، ماي 2018م، جامعة سعيدة .

[2] أبو محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1423ه/2002م، ص : 23 .

[3] منال عبد المنعم السيد جاد الله، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها، دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب، رسالة دكتوراه، إشراف : أ.د.محمد علي أبو ريان و أ. د. فاروق أحمد مصطفى، جامعة الإسكندرية، السنة الجامعية 1990م، ص : 236 .

تعريفات الصوفية أنفسهم له، ولكننا تجنبنا ذلك لكونها تعاريف يصعب على أي كان أن يفهمها إلا أن يكون صوفيا حقيقيا .

كذلك يرى أبو القاسم سعد الله، بأنّ " هناك عدة تعريفات للتصوف في الماضي والحاضر، وسنكتفي – يقول سعد الله – بتعريف ابن خلدون، إذ قال عن أصل طريقة القوم (التصوف) : " وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها، مما يقبل عليه الجمهور، من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة "، وكان ذلك معروفا في الصحابة والسلف، حسب رأيه، ولما أقبل الناس على الترف في الدنيا، اختص الذين تمسكوا بالعبادة باسم الصوفية "4، ولذلك فإنّ الغاية من وجود التصوف في حياة المؤمن، هي " أن يرتقي بالإنسان إلى تهذيب السلوك الإنساني، وكيفية السمو والارتقاء بالنفس البشرية بالتزكية والتصفية، عن طريق علاج أمراض القلوب، وتصحيح المفاهيم والتصورات، وتقويم الجوارح وفق ضوابط الشريعة، والسمو الأخلاقي عن ملذات الدنيا وشهواتها للفوز برضى الله تعالى، ونيل سعادة الدارين، ويسعى المتصوف إلى الوصول إلى مرتبة المراقبة وإلى مرتبة الإحسان، حتى يكون رقيبَه منه، ورقيبه فيه، ورقيبه عليه، وأن بعبُد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه "5.

والتصوف على هاته الحالة، لا يكون مقتصرا على الجانب الديني فقط، وإنما على كافة جوانب الحياة الدينية منها وغير الدينية، على الرغم من أنّ انطلاقته الأولى كانت دينية بحتة .

2-2- تاريخ دخول التصوف إلى الجزائر:

ليس من السهل علينا معرفة متى دخل التصوف إلى الجزائر بالدقة، أي باليوم والشهر والسنة، لكننا سنحاول معرفة الإرهاصات الأولى على الأقل والتي انطلق منها التصوف باثاً روحه الجميلة الزكية والمِعطاءة في شتى ربوع الوطن، وفي هذا الصدد يقول الدكتور طيب جاب الله : " بدأ تصوفا نظريا، ثم تحول ابتداء من القرن العاشر الهجري يتجه إلى الناحية العملية وأصبح يطلق عليه تصوف الزوايا والطرق الصوفية، وقد وُجد التصوف وطرقه لأول مرة في بلاد القبائل ببجاية والمناطق المحيطة بها، وكانت بجاية مركز إشعاع طرقي صوفي لعدة قرون من الزمن، فلقد انطلق منها رجالات التصوف الكبار أمثال أبو زكريا الزواوي، وأبو زكريا السطيفي، ويحيى العيدلي، والشيخ أبي مدين الذي انتقل فيما بعد إلى تلمسان وتوفي سنة 595هـ/1197م، ومنها انتقل التصوف إلى بقية المناطق الأخرى "6، وفي هذا القول ما يمكن الاستئناس به لمعرفة بدايات ظهور التصوف في الجزائر.

ومن جهة أخرى يرى الدكتور صلاح عقبي بأنّ " أقدم الطرق الصوفية على الإطلاق، تأسيسا، وأولها ظهورا، على مستوى العالم الإسلامي، هي الطريقة القادرية، وهي الأقدم في الجزائر كذلك، وتنسب إلى الشيخ عبد القادر

4عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، المجلد الأول، ط2، بيروت، 1961م، ص : 693 . نقلا عن : أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ص : 08 .

5 محمود يوسف الشوبكي، مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة العلوم الإسلامية، المجلد 10، ع 02، 2002م، جامعة غزة، فلسطين، ص : 05 .

6طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، السنة الثامنة، أكتوبر 2013م، العدد : 14، ص : 136 .

الجيلاني (نسبة إلى جيلان من بلاد فارس) وقد ولد سنة 470هـ/1077م 7، كما كان " قدوم الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الجيلاني من المشرق إلى المغرب الأقصى، ثم انتقاله إلى الجزائر ليستقر بالأوراس حيث أسس الزاوية القادرية ببلدة منعة، كان ذلك من العوامل التي ساعدت على نشر الطريقة القادرية في شرق البلاد، وغربها على الخصوص، حيث يوجد ما يربو على المائتي زاوية تخلّد اسم الشيخ عبد القادر الجيلاني "8 .

وعلى هذا الأساس، ومن خلال ما تم سرده، يمكن القول بأنّ بدايات التصوف في الجزائر ترجع إلى الطريقة القادرية، وإلى دخول الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الجيلاني الجزائر بالضبط .

2-3- نشأة المدرسة الصوفية :

وأما عن المدرسة الصوفية، فإنها قد نشأت بعد أن تمكَّن التصوف من الناس تمكنا نظريا، فجاءت هي لتكمل الأمر من الجانب التطبيقي، فكيف تم ذلك يا ترى ؟

من المعلوم أنّ للتصوف عدة مزايا تميزه عن غيره من المذاهب المنتشرة في العالم الإسلامي، ولعل أبرزها هو ما يعرف بـ" الزاوية "، التي هي بمثابة الجامعة في عصرنا هذا، حيث أنّ التلميذ أو المريد، بعد أن يتم تعليمه الأول في الكُتَّاب- وهو يعادل المدرسة بأطوارها الثلاثة - يتوجه مباشرة نحو زاوية من زوايا الوطن، للاستزادة من التربيتين التربية التعليمية، ممثلة في علم الشريعة، والتربية الروحية ممثلة في علم الحقيقة، أو التصوف، وبذلك يكون مؤهلا على حسب اختياره هو، لولوج عالم من عوالم الحياة، الدينية، أو التعليمية، أو السياسية ... الخ ، وفي أغلب الأحيان ما يختار الجانب الديني لما لديه من مكتسباتٍ قبليَّةٍ متعطشة إلى كل ما له علاقة بالدين، وهي مكتسباتٌ صوفية بحتة لا يدركها إلا عرف الزاوية حَقَّ المعرفة ونال من علوم مَشَائِخِهَا الشيء الكثير.

وعليه، فإنّ حديثنا عن المدرسة الصوفية، ما هو في الحقيقة إلا حديثٌ عَنِ الزاوية بشكل أساسي، متفادينا الخوض في التعليم في الكُتّاب، لأن الكتاتيب في نظرنا، لا يتعدى دورها تحفيظ القرآن الكريم وإن لم يكن وفق أحكام التلاوة، أما الزاوية فإنها تجمع كافة أنواع التعليم المعتمدة، بداية من تحفيظ القرآن الكريم، وصولا إلى علم التصوف، فما المقصود بالزاوية يا ترى ؟

في التعريف اللغوي، الزاوية مأخوذة من اللفظ " زوى "، وقد جاء في المقاييس لابن فارس، " زوى : الزاء والواو والياء، يدلُّ على انضمام وتجمُّع، يقال : زويتُ الشيء : جمعتُهُ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " زُويت الأرض فأُريتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها "، يقول : جمعت إلي الأرض، ويقال : زوى الرجل ما بين عينيه، إذا قبضه (...) ويقال : انزوت الجلدة في النار إذا تقبّضت، وزاوية البيت لاجتماع الحائطَين، ومن الباب الزّيّ: حسن الهيئة، ويقال : زوي الإرث عن وارثه يزويه زيّا "9، وأما عن التعريف الاصطلاحي، فالزاوية " هي البنية التي تجمع في فضائلها الأعضاء المنتسبين إليها، أين لهم ممارسة شعائرهم وطقوسهم في كنفها، بالإضافة لقيامها بمختلف

7صلاح عقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت – لبنان، طبعة 2002م، ص : 143 (بتصرف) .

8نفسه، ص : 146 .

9أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، باب الزاء والواو وما يثلثهما، تح : عبد السلام هارون، دار الفكر، (ب، س)، ص : 34 .

الأدوار الاجتماعية لفائدة المجتمع المحلي "10، " وقد ظهرت الزوايا بالمغرب الإسلامي ابتداء من القرن الرابع الهجري كما جاء في بعض الروايات، ويذكر العلامة الجزائري الشيخ المهدي البو عبد اللي رحمه الله في مقال كتبه في الموضوع أنّ الملك الموحِّدي يعقوب المنصور الذي عرِف بعلمه، ودينه، وسياسته، بنى زاوية بدار الضيوف كتلك التي أسسها الملك المريني أبو عنان خارج المدينة " سلا " وقد تحدث عنها الرحالة المغربي ابن بطوطة في رحلته، وتلك التي دَفَنَ فيها الملكُ المذكورُ والدهُ أبا الحسن بالرباط والتي عُرفت بزاوية شالة، وقد زارها لسان الدين بن الخطيب "11، والإشارة إلى المغرب الإسلامي تعني بطبية الحال الإشارة إلى الجزائر كجزء لا يتجزأ من المغرب العربي الإسلامي الكبير.

هذا و" قد عُرف المجتمع الجزائري باحترامه الدائم لمعلم القرآن أو شيخ الزاوية إذ كانت له مرتبة لا ينافسه فيها أحد، وكان مدرسة لتربية الأبناء وتعليمهم القرآن وعلوم الدين واللغة العربية، فهو يقاسم المجتمع والأسرة خصوصا مسئولية التربية على الطريقة المتعارف عليها بين الناس في ذلك الزمان، وكان له حق التصرف في تربية الأبناء، فالمجتمع الجزائري يثق ويخضع خضوعا تاما لإرادة شيخ الزاوية أو المرابط، والتنشئة تقتضي آنذاك إعطاء الحرية المطلقة في التصرف في المريد وما عليه سوى الطاعة التامة، فهو كما قيل : المريد في يد الشيخ كالميت في يد المغسل، الذي وجد قبولا وتأييدا من قبل المجتمع كافة "12 .

3- المبحث الثاني : أعلام التصوف في الجزائر:

إذا نظرنا إلى قدم وجود التصوف في الجزائر، وطول مدة العطاء الروحي والتربوي والتعليمي الذي قامت به المدرسة الصوفية ولا تزال، يتأكد لنا بأن هذا الأمر سيسفر حتما عن بروز عدد هائل من العلماء في التاريخ الجزائري، والذين بقيت أعمالهم شاهدة عليهم وعلى كل حقبة من حقب التاريخ التي عاشوها .

ولذلك فإنه ليس بمقدورنا إلا أن نقول بأنّ عطاء علماء الصوفية في الجزائر عطاء لا حدود له، فقد كانوا حاضرين دائما في شتى المواسم والمناسبات، كما أدّوا أدوارهم بكل تفان ومسئولية، من تعليم النشء إلى بناء القصور والمزارات والأضرحة والمدارس والزوايا، إلى عقد ألوية الصلح بين المتخاصمين، إلى محاربة كافة أنواع التطرف والغلو في الدين وتكفير المسلمين، إلى غير ذلك من الأعمال .

وعليه فإنّ مسألة التعرف على أهم أعلام التصوف في الجزائر أمر في غاية الصعوبة، فقِدم ظهور التصوف في الجزائر- كما أشرنا من قبل - وكثرة الزوايا، مع سرعة انتقال التصوف، وحب الجزائريين والتفافهم حوله، كلها أسباب صعّبت من القدرة على الإحاطة بأعلم التصوف الجزائريين .

وعلى كلٍّ، فإنّنا ومن بين العشرات والعشرات من أعلام التصوف الذين مررنا بهم أثناء هذا إنجاز هذا العمل المتواضع، اخترنا منهم ما يلي :

10يخلف الحاج، الأسس الأنثروبولوجية التأسيسية وعلاقات زاوية سيدي أحمد بن دومة بعين تموشنت، -دراسة ميدانية أنثروبولوجية- رسالة ماجيستير، إشراف : أ. د. يعلاوي أحمد، المدرسة الوطنية للدكتوراه في الأنثروبولوجيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، ص : 35 .

11صلاح الدين مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، لبنان، 2002م، ص : 302 .

12بوغديري كمال، الطرق الصوفية في الجزائر، الطريقة التيجانية نموذجا، دراسة أنثروبولوجية بمنطقة بسكرة، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ.د. ميلود سفاري، جامعة الدكتور محمد لمين دباغين، سطيف-02-، 2015/2014، ص : 230 .

الشيخ أحمد التجاني : هو أبو العباس الشيخ أحمد التجاني، ولد سنة 1150هـ/1737م، جاء جده الرابع محمد بن سالم إلى " عين ماضي "، قادما من الساقية الحمراء، اشتُهر بالعلم والصلاح والورع والعبادة، حَفِظَ القرآن الكريم وتتلمذ على يد مشايخ مبرزين في العلم والتربية، وما إن حصل على مبتغاه من العلم النافع ذهب إلى " الابيض سيدي الشيخ " فدرّس به مدة خمس سنوات، ثم انقل إلى تلمسان، فشرع في تدريس القرآن الكريم، والحديث النبوي في المسجد الكبير، ثم ذهب إلى الحج سنة 1186هـ/1772م، وبعدها أقام في تونس مدة للإفادة والاستفادة، عام 1187هـ/1773م، وبقي يجول بقصد الزيادة والبحث عن أهل الخير، وأوّل من لقي حينئذ من المشايخ " الطيب الوزاني " بوازن، وأخذ عنه وأذن له بتلقين الأوراد، ولقي أيضا " أحمد الصقلي "، إلا أنه لم يأخذ عنه شيئا بل لم يكلّمه بشيء، ولقي محمد بن الحسن الوانجلي، من بني وانجل من جبال الزبيب بمحله، ولم يأخذ عنه، ولقي بفاس العربي بن عبد الله، ودعا له بالخير، وأخذ الطريقة القادرية على يد من كان يلقّنها في ذلك الوقت، ثم تركها بعد حين، ثم أخذ الطريقة الناصرية عن الولي الصالح، محمد بن عبد الله التزاني، الشهير بالريف، ثم تركها، ثم أخذ طريق أحمد الحبيب السجلماسي الصدّيقي، عن بعض من له الإذن فيها، ثم أخذ عن أبي العباس أحمد الطواش، نزيل ودفين تازة، ثم انتقل من المغرب قاصدا الابيض بالصحراء13، وزار خلالها بلده عين ماضي، ثم ارتحل إلى تلمسان، ومنها إلى الحج، حيث مرّ بزواوة وأخذ الطريقة الخلواتية على محمد بن عبد الرحمن الأزهري، وتوقف في تونس وبمصر، وأخذ عن بعض صلحائهما، وبعد أن ضاق ذرعا بالعثمانيين وظُلمهم توجّه إلى فاس سنة 1211هـ، وبها توفق يوم الخميس 07 شوال 1230هـ الموافق لـ 1815م، عن عمر ناهز الثمانين سنة .

ومن آثاره : شرح قصيدة الهمزية للإمام البوصيري، كتاب جواهر المعاني الذي كتبه تلميذه الحاج علي حرازم من إملاء الشيخ، وكتاب الجامع، وقد كتبه تلميذه محمد بن المشري الجزائري، والكتابان مصدّران للطريقة التجانية، وفيهما تفسير للقرآن الكريم ذو الدلالات البعيدة، وشرحه للأحاديث النبوية الشريفة ذات المغزى البعيد 14 .

الشيخ خليل بن هارون الصنهاجي : ولد سنة 766هـ/1365م، انقطع بمكة نحو عشرين سنة، وتزوج زينب بنت اليافي، وقرأ بمكة كثيرا على ابن صديق والزين المراغي، والقاضي النويري وغيرهم ... ، وبالمدينة على يد إبراهيم بن فرحون، وسليمان السقا، وغيرهما ... ، وببيت المقدس على يد أبي الخير بن العلائي، والشيخ محمد القرمي، وبالقاهرة على ابن الملقن، وكان قد قرأ بتونس على أبي عبد الله بن عرفة، وأجاز له خلق كثيرون، أخذ عنه ابن فهد، كما قام باختصار كتابه " تذكرة الإعداد لهول المعاد "، وله من المصنفات، " أشرف مسموع في تحقيق، أبحاث الموضوع "، والأحاديث القدسيات، وتذكرة الإعداد لهول المعاد، وهو في الأذكار والدعوات، توفي سنة 826هـ/1423م، ودفن بالبقيع15.

13محمد رؤوف القاسمي، تعريف الخلف برجال السلف، ص : 283 . نقلا عن : زيزاح سعيدة، الطريقة التجانية : النشأة والتطور، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 09، نوفمبر 2014م، جامعة الأغواط، ص : 73 .

14زيزاح سعيدة، الطريقة التجانية : النشأة والتطور، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 09، نوفمبر 2014م، جامعة الأغواط، ص : 73، 74 .

15عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، الطبعة الأولى 1427هـ/2007م، ص : 148، 149 . (بتصرف) .

زينب بنت محمد الهامِلِيّة (1850م/1904م) : كانت قائدة وإدارية، فلقد تمكنت من مشيخة الزاوية بعد أن توفي والدها، ولقيت دعما كبيرا من المجتمع الهاملي، فأهم ما يثيرنا في هذه الشخصية هو كيف لهذه المرأة المعجزة أن تحتل تلك المكانة وتصل إلى مركز القيادة، لمؤسسة ذاع صيتها في الأقطار، وكان الإدارة الفرنسية تحسب لها ألف حساب، شخصية أثبتت وجودها في مجتمع ذكوري، مجتمع منغلق (...) راحت تبني مجتمعها بالعلم والتمسك باللغة العربية والدين، أي بثوابت المجتمع الجزائري كمجتمع مسلم " 16 .

الشيخ شعيب بن الحسين التلمساني : هو أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري، أصله من قطيانة، وهي حصن صغير في الشمال الشرقي من إشبيلية، غادر الأندلس فارًّا من إخوته الذين استغلوا يتمه ليجبروه على رعي مواشيهم، كان حتى منتصف العقد الثاني من عمره لا يزال أميا، سافر إلى طنجة، ثم ذهب إلى سبتة حيث عمل أجيرا للصيادين، ثم انتقل إلى مراكش وفيها تطلّع إلى طلب العلم، فنصحه بعض الناس بالانتقال إلى فاس، وفي فاس أخذ عن شيخه أبي الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، وقد لازمه مدة . ومن شيوخه فيها أيضا المجاهد أبو الحسن بن غالب (ت 592هـ)، الذي قرأ عليه " السنن " لأبي عيسى الترمذي، ومنهم الشيخ أبو عبد الله الدقاق السلجماسي الأصل، المدفون بمقبرة الجيسة، وكذلك أخذ عن أبي يعزى يلنور بن ميمون (ت 572هـ)، وفي رحلته إلى الحج تعرّف على الشيخ عبد القادر الجيلاني، والمرجّح أنّ ذلك كان بين عامي 550هـ و555هـ . سافر أبو مدين إلى بجاية، ومكث بها أكثر من خمسة عشر عاما، وفيها قرأ عليه الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي (ت581هـ) كتاب " المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى "، كما درّس في بجاية أيضا " الرسالة القشيرية " لأبي القاسم بن عبد الكريم القشيري . توفي أبو مدين التلمساني سنة 594هـ بمدينة تلمسان، ودفن بها17.

الصادق بن الحاج الأوراسي : ولد سنة 1205هـ/1790م بالأوراس، أخذ العلم عن شيوخ منطقته، ثم أخذ الطريقة الرحمانية عن شيخه محمد بن عزوز البرجي، وصار من أتباعه الملخصين، من تلاميذه ولداه الطاهر وإبراهيم، اللذين سُجنا معه بعد ثورة قادها الشيخ ضد المحتل الفرنسي 1858- 1859م، في الأوراس، أحرق على إثرها الجنرال ديفو زاوية المصمودي عن آخرها سنة1859م، له كتاب " كما الإكمال " تناول فيه آداب الصوفية ومقاماتهم العلية، مستدلا على ذلك بالكتاب والسنة وأقوال كبار الصوفية، توفي في سجن الحرّاش سنة 1277هـ/1862م18.

الشيخ أبو عبد الله الشريف التلمساني : ولد سنة 710هـ/1310م، بتلمسان، ونشأ بها، وأخذ عن علمائها، واختص بأولاد الإمام، وتفقّه عليهما في الفقه والأصول والكلام، ثم لزم العالم الكبير الآبلي مدة طويلة، وتضلّع بمعارفه، وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه، وأصبح عَلَمًا معروفا انتهت إليه الإمامة ببلاد المغرب، حتى عُرف بإمام المغرب خلال القرن الثامن الهجري، انتقل من تلمسان إلى تونس عام 740هـ/1339م، أين التقى علماء كبار وأخذ عنهم، من

16قاسمي حسن عواطف، لالة زينب فكر وحضارة، دراسة سوسيولوجية لشخصية لالة زينب القيادية ودورها الحضاري في المجتمع الهاملي 1904/1897م، مجلة الصوتيات، المجلد 19/، ع 1، مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة -2-، لونيسي علي، ص : 344 .

17بلختير بومدين، الأبعاد النفسية للتصوف عند أبي مدين شعيب التلمساني من خلال قصائده وأقواله، مجلة الفكر المتوسطي، جامعة تلمسان، المجلد 3، ع 2، سبتمبر 2013م، ص : 284-252 . (بتصرف) .

18عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، (مرجع سابق)، ص : 170، 171 . (بتصرف) .

أمثال عز الدين بن عبد السلام، وفي عام 753هـ/1352م، ضمّه السلطان المريني أبو عنّان لمجلسه العلمي، وأراد نقله إلى فاس، لكن الشريف التلمساني حنّ إلى مسقط رأسه والاستقرار بموطنه الأصلي، فاعتقله أبو عنان وأساء معاملته، ثم عاد إليه واسترضاه وجعله من المقرّبين إليه، وذلك بعد استيلائه على مدينة قسنطينة والمغرب الأوسط، وبقي الشيخ ملازما للسلطان إلى حين وفاته سنة 759هـ/1357م، فاستدعاه أبو حمو موسى بن يوسف الزياني بعد أن استرجع تلمسان من المرينيين، وقرّبه إلى مجلسه، وزوّجه ابنته وشيّد له مدرسة بتلمسان، درّس فيها إلى أن وافاه الأجل عام 771هـ/1369م، ومما تركه الشيخ من آثار كتابُه " مفتاح الوصول إلى بناء الفروج على الأصول "، وكتاب " مثارات الغلط في الأدلّة "، وكتاب " شرح جمل الخونجي "، كتاب " في القضاء والقدر " ... الخ19.

الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي : مؤسس زاوي الهامل، ولد سنة 1240هـ/ 1824م، قرب حاسي بحبح، انتقل إلى زاوية علي الطيار بمنطقة البيبان، أتقن فيها القراءات السبع وفن التجويد، في غضون سنتين فقط، وكان انتقاله إليها سنة 1837م، أخذ عن سيدي أحمد بن أبي داود بزاوية آقبو، وأخذ عن الشيخ مصطفى بن عزوز بتونس، تخرج على يديه جمع غفير من الطلبة والعلماء والشيوخ، من أشهرهم، محمد بن عبد الرحمن الديسي، والشيخ محمد المكي بن عزوز، والشيخة محمد العاصمي، وابو القاسم الحفناوي ... الخ، أوقف أموالا وعقارات وبساتين على زوايا شيوخه في أولاد جلاّل، وبرج بن عزوز، وآقبو، والجزائر العاصمة، وكان رضي الله عنه يدفع مرتّبات دائمة لطلبة العلم والقرآن الكريم بالحرمين الشريفين، ويساعد العلماء والشيوخ في ذلك، له منظومته التي عَرفت شهرة كبيرة لدى الأوساط الصوفية، وتعرف بـ " الأسمائية "، وعدة رسائل مثل رسالته حول الهجرة، ورسالة الطريقة الرحمانية، والشاذلية، وغيرها ...، توفي وهو في طريق عودته من الجزائر العاصمة، وذلك فاتح محرم الحرام سنة 135هـ، الموافق لـ 02 جوان 1897م، وكان عمره آن ذاك 73 سنة 20 .

أبو يحيى المنياري (ت 840هـ/1437م) : من علماء إقليم توات، بالجنوب الغربي الجزائر، ولاية أدرار، يذكره حفيده ابن بابا حيا، باسم أبي يحيى محمد المنياري، أي إضافة اسم محمد، وهو الذي قال عنه : " ذكره علماء البلد، وأعني الأكابر والأولياء المشاهير، وأوّله على ما بلغنا ذكره جدنا سيدي أبو يحيى بن محمد المنياري، أرى المنيار نسبة لأبي منيار، قبيلة في المغرب معروفة بأرض التلول، تخبر عنها أحميان، وجدنا نزل تمنطيط عام خمسة وعشرة وثمانمئة، في القرن التاسع بعد الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وتقضى على توات كلها، وكانت مؤونته عليهم فيما يُحكى، خمسمائة مثقال لكل سنة، ويعرف عنه العدل والصلاح "21 .

19غرداوي نور الدين، جهود أبي عبد الله الشريف التلمساني في مجال الفتوى، ودوره في الإشعاع الثقافي بالمغرب الإسلامي خلال العهد الزياني من خلال نوازل المازوني، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية، العدد 18، جوان 2017م، الجزائر، ص : 46 . (بتصرف) .

20 عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر، (مرجع سابق)، ص : 284، 285، 286 . (بتصرف) .

21ابن بابا حيدا محمد الطيب، القول البسيط في أخبار تمنطيط، ص : 30 . نقلا عن : سالمي زينب، الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 10/08 هجرية، رسالة ماجيستير، إشراف أ. د . بودواية مبخوت، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية : 1432-1433هـ / 2011-2012م، ص : 37 .

وقد اتفقت الجماعة التواتية على توليته قضاء الجماعة في نفس السنة التي نزل بها بتمنطيط، سنة 815هـ22، بعد أن شهد له أهل المنطقة بالعلم الواسع، وقد سار في ذلك على قدر عظيم من العدل والصلاح، وتتضح مكانته كذلك في جابن القضاء، من الأجر الوافر الذي كان يدفع له على توليته القضاء 23، وافته المنية سنة 840هـ/1437م، وقد ترك بصمته في المشهد الثقافي والعلمي بإقليم توات، وإن غفل عن ذكرها الذين أرّخوا للمنطقة 24".

ونذكر من المعاصرين، الشيخ عبد الرحمن بن يلّس التلمساني، الذي ولد سنة 1351هـ/1932م، بدمشق، في حي الدقاقين قرب الشاغور، أخذ العلم في المدرسة التي أسسها والده الشيخ أحمد، والمسماة " مدرسة الإرشاد والتعليم "، وكان من أبرز مشايخه بها- إضافة إلى والده – الشيخ هاشم الخطيب والشيخ علي الدقر، اللذين كان لهما مع المحدّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني في سورية أكبر الفضل في نهضة الإصلاح، التي عرِفت بنهضة المشايخ، وإشعال فتيل الثورة ضد الفرنسيين25، كما تابع دراسته في المدارس الرسمية بدمشق، ومنها حصّل على الشهادة الثانوية (الباكالوريا)، ثم انتسب إلى كليّة الشريعة بالجامعة السورية ؛ أما في مجال التربية والسلوك الصوفي، فقد أخذ الطريقة الشاذلية عن والده الشيخ أحمد بن يلّس، ثم جدّد العهد على يد شيخ الطريقة في بلاد الشام، العارف بالله المعمّر الشيخ عبد الرحمن الشاغوري رحمه الله تعالى، المتوفى سنة 2004م .

وفي الجزائر استوطن مدينة وهران واستقر بها، وتوظّف أستاذا بإحدى ثانوياتها " ثانوية ابن باديس "، مدرّسا لعلوم اللغة العربية وآدابها، وذلك إلى غاية سنة 1976م، ثم عُيّن أستاذا بالجامعة في معهد علم النفس، حيث أُسند إليه تدريس الفلسفة والفكر الديني، واستمر على ذلك إلى غاية سنة 1979م، حيث أصيب بمرض اضطُرَّ سببه الانقطاع عن التدريس بالجامعة، ونُقل إلى العاصمة الفرنسية باريس للمعالجة، فقاموا ببتر إحدى رجليه .

ولما كان في دمشق، وقبل يومين عن موعد سفره إلى الجزائر، صعد مع أحد أحبابه إلى جبل قَاسَيُونَ المُطلّ على دمشق، فقال له وهو ينظر إلى هذا البلد الحبيب إلى قلبه، قل : آمين . فقال صديقه : آمين . فقلا الشيخ : أسأل الله أن يجعل وفاتي في الشام، وأدفن على قبر جدي بجوار سيدنا بلال، وقد استجاب الله لهذا الدعاء، حيث وقبل موعد السفر والرجوع إلى الجزائر بيوم، وذلك يوم الاثنين 11 شعبان 1403هـ الموافق لـ 23 ماي 1983م، اشتد المرض على الشيخ، ومع بدء أذان العصر، وعند قول المؤذّن : " أشهد أنّ محمدا رسول الله "، نطق الشيخ بالشهادتين،

22البكري عبد الحميد، النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر الهجري،ص : 80 . نقلا عن : سالمي زينب، الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 10/08 هجرية،ص : 37 .

23بلبالي إبراهيم، التأثير الثقافية والفكري لحاضرة تلمسان على توات في القرن 9هـ، من خلال نوازل الونشريسي- نازلة يهود توات -، ص : 226 . نقلا عن : سالمي زينب، الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 10/08 هجرية،ص : 38

24 سالمي زينب، الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 10/08 هجرية، رسالة ماجيستير، إشراف أ. د . بودواية مبخوت، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية : 1432-1433هـ / 2011-2012م، ص : 37-38 .

25علي الطنطاوي، رجال من التاريخ، ص : 387 . نقلا عن : نبيل حفاف، التعريف بالعالم الرباني الشيخ عبد الرحمن بن يلس التلمساني (1932-1983م) أحد أعلام التصوف الجزائريين المعاصرين، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 8، العدد 2، جامعة تلمسان، ص : 68 .

وفاضت روحه إلى بارئها، فشُيّعت جنازته ودُفن بمقبرة الباب الصغير كما كان يتمنى، في قبر جدّه، على مقربة من قبر سيدنا بلال بن رباح رضي تعالى الله عنه26.

ومن المعاصرين أيضا، الشيخ محمد باي بلعالم، وهو أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد بن المختار ابن أحمد العالم القبلوي الجزائري (المالكي المذهب)، الشهير بالشيخ باي، يرجع نسبه إلى قبيلة حِميَر القبيلة العربية المشهورة في اليمن، ولد عام 1930م، في قرية " ساهل " ببلدية " أقبلي " بدائرة " أولف "بولاية أدرار، بدأ علمه بدراسة القرآن الكريم في مدرسة ساهل، على يد المقرئ الحافظ الشيخ، محمد بن عبد الرحمن بن المكي بن العالم، ثم قرأ على والده المبادئ النحوية والفقهية، كما درس على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، لينتقل إلى زاوية الشيخ أحمد بن عبد المعطي السباعي، ومكث فيها سبع سنوات تلقى فيها الفقه المالكي وأصوله، والنحو والفرائض والحديث والتفسير، حتى أجازه في شتى علوم الفقه واللغة، وبعد أن تخرّج من هذه الزاوية انتقل إلى مدينة أولف، أين قام بتأسيس زاوية للعلوم الشرعية أسماها مدرسة " مصعب بن عمير "، تعنى بتدريس الطلاَّب والطالبات الأمور الدينية واللغوية للمساهمة في رفع المستوى الثقافي لدى أبناء وطنه إبّان فترة الاستعمار27؛ تحصل سنة 1971م على شهادة تعادل الليسانس في العلوم الإسلامية، بعد مشاركته في مسابقة لوزارة الأوقاف أجرتها لتحديد المستوى العلمي لمجموعة من المشايخ .

شارك الشيخ في العديد من الملتقيات والندوات المتعلقة بالقرآن الكريم، وله العديد من المؤلفات التي نذكر منها : الرحيق المختوم لنزهة الحلوم، وهو شرح لنظم نزهة الحلوم للشيخ محمد بن أب، التحفة الوسيمة على الدرة اليتيمة، وهو شرح لأرجوزة في النحو ... الخ28.

4- المبحث الثالث : تأثير المدرسة الصوفية على المجتمع:

أشرنا فيما سبق، إلى أنّ مفهوم المدرسة الصوفية ما هو إلا إشارة إلى مصطلح " الزاوية "، فالزاوية هي المكان الوحيد الذي يصنع لنا موطنا صالحا مفيدا لمجتمعه، ومحافظا على تقاليد هذا المجتمع وعاداته، ومبادئه، كما أننا نرى بأنّ دور الزوايا في المجتمع الجزائري، متنوع جدا، ومتواصل في شتى الحقب التاريخية، فهو لا يخص زمنا واحدا من الأزمان، ولا مكانا واحدا من الأمكنة، ولذلك ليس بالإمكان الإحاطة بأعمال شيوخ الزوايا في الجزائر على مر العصور، ولا في كافة أرجاء الوطن، ولا أيضا في شتى ميادين الحياة، وإنما نرى أنه يمكن حصر الأمر في ثلاثة مستويات هي : مستوى التربية والتعليم، ومستوى الدفاع عن الوطن، ومستوى المؤاخاة بين الجزائريين وبناء المدن والتحصينات

26نبيل حفاف، التعريف بالعالم الرباني الشيخ عبد الرحمن بن يلس التلمساني (1932-1983م) أحد أعلام التصوف الجزائريين المعاصرين، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 8، العدد 2، جامعة تلمسان، ص : 68 – 79 .(بتصرف) .

27 باي بلعالم، الرحلة العلمية إلى منطقة توات، ص : 378 . نقلا عن :زهور شتوح، منهج الشيخ محمد باي بلعالم في التعليل النحوي – قراءة تحليلية لشروحه على المقدمة الآجرومية – مجلة تاريخ العلوم، المجلد 4، العدد 9، سبتمبر 2017م، جامعة المدية، ص : 83 .

28زهور شتوح، منهج الشيخ محمد باي بلعالم في التعليل النحوي – قراءة تحليلية لشروحه على المقدمة الآجرومية – مجلة تاريخ العلوم، المجلد 4، العدد 9، سبتمبر 2017م، جامعة المدية، ص : 83، 84 . (بتصرف) .

- ولا ريب - في أنّ في هاته المستويات الثلاث ما يشير إلى دور المدرسة الصوفية في بناء المجتمع الجزائري، ولو بالنزر القليل .

4-1- في حب التربية والتعليم :

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله : " بقدر ما سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني، بقدر ما كان إنتاج العلماء في هذا الميدان، فنحن نجد الكثير من الكتب والرسائل والتقاييد والمنظومات التي تتناول التصوف من قريب أو من بعيد، كالأذكار والأوراد، والردود، والمناقب، والمواعظ، والحكم، والشروح الخاصة بقصائد صوفية، والمدائح النبوية التي تنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته نظرة صوفية روحانية "29.

وها هو ذا الباحث الجزائري كمال خليل، في رسالة ماجيستير قدمها بعنوان : " المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر، التأسيس والتطور1951/1850م "، يعرّفنا على أهم العلوم التي يتلقاها الطالب في الزاوية على النحو التالي : " أ- القراءات : حيث يتم تلقين التلاميذ أو الطلبة فن التجويد، وتلاوة القرآن بحسب الروايات الشهيرة .ب- التفسير : يدرِّس بعض الشيوخ في جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، والكشاف للزمخشري، وتفسير الرازي لفخر الدين الرازي، وتفسير الثعالبي، وتفسير البيضاوي لناصر الدين ابن محمد بن عبد الله البيضاوي . ج- الحديث : يدرّس في الزوايا صحيح البخاري، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، التوحيد والفقه والأصول : اشتغل الكثير من العلماء بتدريس مختلف الموارد الدينية كالتوحيد والتصوف . د- البلاغة والأدب : تدريس اللغة العربية وقواعدها وآدابها "30.

وعلاوة على ذلك، فإن التعليم عند السادة الصوفية لم يكن مقتصرا على القديم فقط، بل كان فيه من الحداثة والمعاصرة الشيء الكثير، فعلى سبيل المثال –لا الحصر- " عرفت مدينة تلمسان نشأة زاوية الشيخ بن يلّس في 1910/10/03م، التي تفرعت عن الطريقة الهبرية، وقد أشرفت على التعليم العربي الحر وفق برنامج وخطة عصرية، ولذلك خصصت ورشات كبيرة تحتوي على أقسام وقاعات خاصة بالنشاطات الدينية والتربوية والتعليمية، تدرّس فيها المناهج والعلوم الحديثة، كما عملت الزاوية على توفير الكتب، والأساتذة، وكذا الوسائل التعليمية، كالكراسي والطاولات ... الخ 31.

4-2- في حب الوطن والدفاع عنه :

لقد عمل الصوفية على مر الزمن من أجل توثيق الصلة بين مختلف أفراد المجتمع ونبذ الأحقاد وكل ما من شأنه أن يفرّق بينهم، هذا في الحالات التي قد يختلط فيها الحق بالباطل، ويصبح العدو غير ظاهر، والصديق كذلك، فما بالك إذا كان العدو ظاهرا جهارا نهارا، فالجهاد ضده سيكون بالتأكيد من أولويات الصوفية، و" الدارس لتاريخ الجزائر يدرك جيدا أنّ جل الثورات الشعبية منبعها الزوايا والطرق الصوفية، فمثلا الأمير عبد القادر يعتبر متصوفا

29 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، 1500-1830م، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ص : 111، 112 .

30 كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر، التأسيس والتطور 1850/ 1951، رسالة ماجيستير، إشراف : أ.د. أحمد صاري، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 2008/2007م، ص : 24 .

31يوسف دحماني، الحياة الثقافية والاجتماعية إبان فترة الاحتلال الفرنسي، تلمسان أنموذجا 1900-1954م، رسالة ماجيستير، إشراف : أ. د. يمينة شبوط، السنة الجامعية 1436-1437هـ/2015-2016م، جامعة تلمسان، ص : 145، 146 . نقلا عن : صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، ص : 154 .

وخريج زاوية، والقول ينطبق أيضا على ثورة اولاد سيدي الشيخ، ممثلة في الشيخ بوعمامة خريج الزاوية القادرية نسبة إلى سيدي عبد القادر ابن محمد المدعو سيدي الشيخ، وكذلك الشيخ الحداد، الذي حرر وصيّته لمريديه وأتباع طريقته بعد نفيه من طرف الاستعمار الفرنسي، يطلب فيها انضمامهم إلى شيخ زاوية الهامل، كمظهر من ظاهر التعاون بين الزوايا ضد المحتل، وقد جاء في وصيته ما يلي : " عليكم بالكبريت الأحمر "، وهي تسمية كان يطلقها على زاوية الهامل "32، وإذا كانت هذه الشهادات منسوبة للمقاومين الجزائريين الذين هم في الأثل من الصوفية، فما باللكم بشهادة العدو نفسه، فقد " كشف دي نوفو Di novo وهو من ضباط القيادة العامة في قسنطينة، وكان يتكلم العربية، في كتابه الإخوان، الصادر سنة 1845م، عن الدور الرئيسي للزوايا في المقاومة الدينية، أما النقيب ريتشارد المتتبع للدوافع العميقة للمقاومة الجزائرية، فقد تحدّث عن ثورة الظهرة التي اندلعت سنة 1845م، مبرزا بوضوح الدور المهم الذي قامت به الجماعات الدينية، ومعترفا بأهمية ما يسميه بالمنظمات الدينية (يقصد الطرق الصوفية) "33.

هذا وقد أحصى الباحث الجزائري خنفوق إسماعيل، في عمل قَدَّمَهُ على شكل رسالة ماجيستير بعنوان : " دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس 1931/1844م "، ما يربو عن الخمس ثورات شعبية، ما بين سنتي 1847 و1916م، كانت شرارتها الأولى ومنبعها الأول التوجه الصوفي الذي تشربت منه أفئدة أولئك الرجال المجاهدين في سبيل الله وفي سبيل الوطن، وهي ما سنسرده على النحو التالي : 1- ثورة اولاد جلال (جانفي 1847)، 2- ثورة الزعاطشة (1849)، 3- انتفاضة سي الصادق بلحاج (1858-1859)، 4- ثورة سنة 1871م، 5- ثورة سكان واحة العمري (1876)، 6- ثورة 1879، ثورة 1916م 34،على أنه لا بد من التنويه إلى أنّ مثل هاته الثورات وغيرها هو أمر طبيعي لا يحتاج إلى تأكيد، كما أنّ الصوفي أصلا معتاد على جهاد النفس من خلال الزهد في الدنيا والابتعاد عن ملذاتها قدر الإمكان وهذا هو أصل التصوف وجوهره الأساسي، ومن يعوّد نفسه على جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر، يسهل عليه بالتأكيد أن يجاهد الأعداء، وهو الجهاد الأصغر.

ثم إنَّ مسألة الجهاد عند الصوفية لا تتوقف على العدو الغازي للوطن الذي يقيمون فيه، بل إنهم يرون بأن الجهاد يكون في كل مكان يذكر فيه اسم الله، إذا ما تم الاعتداء عليه بالطبع، خاصة إذا كان هذا المكان من الأماكن المقدسة في الإسلام، كالبيت الحرام، والمسجد الأقصى على سبيل المثال، " ولا تزال ذاكرة التاريخ تحتفظ بمشاركة أبي مدين الغوث في فتح بيت المقدس، أنه لم يكتف بمباركة حملة صلاح الدين ضد الصليبيين، بل حارب في الصفوف الأمامية لجيشه حتى كُتب للمسلمين النصر، وقُطع ذراع الولي الصوفي أثناء خوضه معركة " حطّين " الشهيرة، سنة 1187م، أين دُفن كشهادة سقاية الأراضي المقدسية بدماء جزائرية، ومكافأة له على تضحيته وعرفانا منه ببسالته

32نصر الدين باقي، دور الزوايا في الاستقرار السياسي والاجتماعي للجزائر، مجلة آفاق فكرية، المجلد الثالث، العدد السابع، السنة 2017م، ص : 149 .

33 رشيد بكاي، سلطة الخطاب الصوفي في الجزائر، دراسة تحليلية نقدية، 1832ه/1954م، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. بوعرفة عبد القادر، جامعة وهران، السنة الجامعية : 2012-2013م، ص : 205 .

34 خنفوق إسماعيل، دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس 1931/1844، رسالة ماجيستير، إشراف : د. صالح فركوس، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية : 2011/2010م، ص : (63-85) .

أوقف السلطان الأيوبي حارة للمغاربة بالقدس الشريف تولّت إدارتها عائلات من أصل جزائري، إلى أن اِنْدَرَسَتْ معالمها حينما قام اليهود الصهاينة بتوسيع ما يعرف بحائط المبكى إثر سقوط القدس الشرقية "35 .

4-3- في النزوع إلى السلم والتضامن، والبناء والتشييد :

4-3-1- مظاهر النزوع إلى السلام والتضامن بين الأفراد :

إنّ مظاهر التآخي والوحدة والتضامن والتعاون، في المجتمع الجزائري تزيد عن الحصر، فهي من القيم المثلى التي نعيشُها كل يوم حتى صارت أمرا بديها لا غرابة فيه، هذا فضلا عن التعاليم الإسلامية السمحة التي ربانا عليها الدين الإسلامي الحنيف؛ وبالتالي يكون من الطبيعي جدا أن تجد المتصوف الجزائري يسعى إلى تكريس تلك القيم مسخرا في ذلك كل ما يمتلكه من إمكانيات مادية أو معنوية، حيث تتمثل المادية منها في ما تحويه الزاوية من أطعمة وألبسة وغيرها، أما المعنوية فهي توظيفه لسلطته الروحية في الدعوة إلى التعاون في كل ما من شأنه أن يفيد هاته الأمة، مصداقا لقوله تعالى [آل عمران : 104-105] ، ولعلها تكون الطائفة الصوفية أو أتباع المذهب الصوفي هم المقصودون في هاته الآية الكريمة، بالأمة التي تدعو إلى الخير والمعروف مثلما نجده في ما يعرف بـ " الوعدة أو الزورة " التي تُنظم في كل القطر الوطني، وتهدف إلى الإطعام، وإصلاح ذات البين ... الخ، وفي رسالة ماجيستير قدّمها الطالب يخلف الحاج، بعنوان : " الأسس الأنثروبولوجية التأسيسية وعلاقات زاوية سيدي أحمد بن دومة بعين تموشنت، تحدث هذا الباحث عن جانب من جوانب التضامن التي تشرف عليه الزاوية فقال : " من النشاطات الكبيرة ذات الطابع الاجتماعي التضامني هو ما قامت به الزاوية – يعني زاوية سيدي احمد دومة بعين تموشنت – بتنظيم ختان جماعي للأطفال، أبناء المعوزين في ليلة القدر سنة 2004م، وعددهم أربعمائة طفل وكل مصاريف هذه العملية كانت على عاتقة الزاوية "36.

4-3-2- مظاهر البناء والتشييد :

ومن أمثلة ذلك، ما كان في تأسيس مدينة الأبيض سيدي الشيخ، فإن الفضل في بنائها يعود إلى أحد الأولياء الصالحين والذي يكنّى بـ : " سيدي الشيخ "، كما تقول الروايات الشعبية، وكذا الدراسات التاريخية، حيث " يتّضح من خلال تسمية مدينة الأبيض سيدي الشيخ، أنها تحمل شقَّين، الأول " الأبيض "، ويرتبط بصفة تربة البئر الذي أنشأه الولي الصالح سليمان بن بو سماحة، أما الشق الثاني من تسمية المدينة " سيدي الشيخ "، فيرتبط بكنية الولي الصالح عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بو سماحة، وبالتالي يمكن التطرق لمرحلة في مراحل نشأة المدينة، ارتبطا كلاهما برجال التصوف وكان لهم الدور المباشر في ظهور المدينة "37.

ولا يقف الأمر عند هذا المثال فحسب، بل هناك العديد من المدن الجزائرية التي يعود فضل تأسيسها أو إعادة تجديدها إلى الصوفية بشكل مباشر، مما يثبت الدور الفعال للتصوف في بناء المجتمع الجزائري .

35زعيم خنشلاوي، التصوف في الجزائر، وزارة الثقافة- الجزائر، tasawuf.26.2010/2، ص : 216 .

36يخلف الحاج، الأسس الأنثروبولوجية التأسيسية وعلاقات زاوية سيدي أحمد دومة، بعين تموشنت – دراسة ميدانية أنثروبولوجية –(مرجع سابق)،ص : 108 .

37بوطيبة عبد الغني، دور رجال التصوف في نشوء المدن، مدينة الأبيض سيدي الشيخ نموذجا، مجلة آفاق فكرية، العدد 6، شتاء 2017م، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، ص : 60 .

5- خاتمة :

من النتائج التي خلُصنا إليها في خضم هاته الدراسة المتواضعة ما يلي :

- هناك ثلاثة مفاهيم لغوية للتصوف، ولعل أَصْوَبَهَا ما يشير إلى الصفاء .
- التصوف في الاصطلاح، هو كل ما يقوم على تربية الفرد المسلم تربية روحية وأخلاقية ودينية .
- التصوف عند ابن خلدون هو العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى .
- يصعب على الباحثين تحديد زمن دخول التصوف إلى الجزائر بالدقة .
- تعد الطريقة القادرية أقدم الطرق الصوفية دخولا إلى الجزائر .
- المقصود بالمدرسة الصوفية من خلال هذا المقال هو : " الزواية " .
- الجزائر زاخرة بعدد هائل من أعلام التصوف جاء ذكر بعضهم في هاته الدراسة .
- يتجلى تأثير المدرسة الصوفية على المجتمع الجزائري، في ثلاث مستويات هي: التربية والتعليم، الدفاع عن الوطن، المؤاخاة بين الجزائريين .
- يتمثل المستوى الأول " مستوى التعليم "، عند الصوفية، في استخدام الكتاتيب، والزوايا.
- ويتمثل المستوى الثاني " مستوى الجهاد "، في جهاد النفس، وجهاد العدو داخل البلاد وخارجها.
- ويتمثل المستوى الثالث " مستوى المؤاخاة " في النزوع إلى السلم، وبناء المدن .
- وفي الأخير نقول: إن دور المدرسة الصوفية في المجتمع الجزائري، لا يمكن أن يختصر في مقال أو اثنين، وإنما الأصل أن تُفرد له الكتب العِظام، لقدم دخول التصوف إلى أرض الجزائر من جهة، ولكثرة ما قدّوه لهذا الوطن من جهة أخرى .

- قائمة المراجع:

1. - القرآن الكريم، برواية حفص، وبالخط العثماني .
2. 01- صلاح عقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت – لبنان، طبعة 2002م .
3. 02 - أبو محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1423ه/2002م .
4. 03 - عبد المنعم القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، الطبعة الأولى 1427ه/2007م.
5. 04 - بوغديري كمال، الطرق الصوفية في الجزائر، الطريقة التيجانية نموذجا، دراسة أنثروبولوجية بمنطقة بسكرة، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. ميلود سفاري، جامعة الدكتور محمد لمين دباغين، سطيف-02-، 2015/2014 .
6. 05 - خنفوق إسماعيل، دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس 1931/1844، رسالة ماجيستير، إشراف : د. صالح فركوس، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية : 2011/2010م .
7. 06 - كمال خليل، المدارس الشرعية الثلاث في الجزائر، التأسيس والتطور 1850/ 1951، رسالة ماجيستير، إشراف : أ.د. أحمد صاري، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية.

8. 07 - رشيد بكاي، سلطة الخطاب الصوفي في الجزائر، دراسة تحليلية نقدية، 1832هـ/1954م، أطروحة دكتوراه، إشراف : أ. د. بوعرفة عبد القادر، جامعة وهران، السنة الجامعية : 2012-2013م .
9. 08 - سالمي زينب، الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 10/08 هجرية، رسالة ماجيستير، إشراف أ. د . بودواية مبخوت، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية : 1432-1433هـ / 2011-2012م .
10. 09 - يخلف الحاج، الأسس الأنثروبولوجية التأسيسية وعلاقات زاوية سيدي أحمد بن دومة بعين تموشنت، -دراسة ميدانية أنثروبولوجية- رسالة ماجيستير، إشراف : أ. د. يعلاوي أحمد، المدرسة الوطنية للدكتوراه في الأنثروبولوجيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران.
11. 10 - يوسف دحماني، الحياة الثقافية والاجتماعية إبان فترة الاحتلال الفرنسي، تلمسان أنموذجا 1900-1954م، رسالة ماجيستير، إشراف : أ. د. يمينة شبوط، السنة الجامعية 1436-1437هـ/2015-2016م، جامعة تلمسان، ص : 145، 146 .
12. 11 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، باب الزاء والواو وما يثلثهما، تح : عبد السلام هارون، دار الفكر، (ب، س) .
13. 12 - بلختير بومدين، الأبعاد النفسية للتصوف عند أبي مدين شعيب التلمساني من خلال قصائده وأقواله، مجلة الفكر المتوسطي، جامعة تلمسان، المجلد 3، ع 2، سبتمبر 2013م .
14. 13 - بوطيبة عبد الغني، دور رجال التصوف في نشوء المدن، مدينة الأبيض سيدي الشيخ نموذجا، مجلة آفاق فكرية، العدد 6، شتاء 2017م، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس.
15. 14 - غرداوي نور الدين، جهود أبي عبد الله الشريف التلمساني في مجال الفتوى، ودوره في الإشعاع الثقافي بالمغرب الإسلامي خلال العهد الزياني من خلال نوازل المازوني، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية، العدد 18، جوان 2017م، الجزائر .
16. 15 - حمادي هواري، التصوف الإسلامي، مجلة تنوير، المجلد 5، العدد 1، ماي 2018م، جامعة سعيدة .
17. 16 - زعيم خنشلاوي، التصوف في الجزائر، وزارة الثقافة- الجزائر، tasawuf.26.2010/2 .
18. 17 - زهور شتوح، منهج الشيخ محمد باي بلعالم في التعليل النحوي – قراءة تحليلية لشروحه على المقدمة الآجرومية – مجلة تاريخ العلوم، المجلد 4، العدد 9، سبتمبر 2017م، جامعة المدية .
19. 18 - زيزاح سعيدة، الطريقة التجانية : النشأة والتطور، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 09، نوفمبر 2014م، جامعة الأغواط .
20. 19 - طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، السنة الثامنة، أكتوبر 2013م، العدد : 14 .
21. 20 - قاسمي حسن عواطف، لالة زينب فكر وحضارة، دراسة سوسيولوجية لشخصية لالة زينب القيادية ودورها الحضاري في المجتمع الهاملي 1897/1904م، مجلة الصوتيات، المجلد 19/، ع 1، مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة -2-، لونيسي علي .
22. 21 - محمود يوسف الشوبكي، مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي، مجلة العلوم الإسلامية، المجلد 10، ع 02، 2002م، جامعة غزة، فلسطين .
23. 22 - نبيل حفاف، التعريف بالعالم الرباني الشيخ عبد الرحمن بن يلس التلمساني (1932-1983م) أحد أعلام التصوف الجزائريين المعاصرين، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 8، العدد 2، جامعة تلمسان .
24. 23 - نصر الدين باقي، دور الزوايا في الاستقرار السياسي والاجتماعي للجزائر، مجلة آفاق فكرية، المجلد الثالث، العدد السابع، السنة 2017م